آفة الهوى

للأستاذ السيد محمد عبد الشافعى

الهوى : كلمة جامعة ، تشمل الباطل من قول واعتقاد وعمل . وحقيقة الهوى : ميل النفس إلى شهواتها خروجاً عن أمر الله . قال تعالى : (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى) ودليل الخطاب فى الآية يفهمنا أن من لم يخف مقام ربه واسترسل مع شهواته فإن جهنم مأواه ، وقد اعتبره صلى الله عليه وسلم من المهلكات الثلاث حيث قال : ثلاث مهلكات . شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه . وملاذ الهوى فى النفس هى داؤه العضال ، وإنما كان ذلك لثلاثة أمور :

الأمر الأول : — هو أن كل ما على وجه الأرض مزين للنفس ، لما اقتضته حكمة الإبتلاء قال تعالى : (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لنبلوهم أيهم أحسن عملا) . وقد بين وفصل ذلك الحق فى آية أخرى من كتابه فقال : (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث) . والنفس عشاقة لما زين لها بطبيعتها ، ولذا لم يكن سهل عليها أن تترك ما ألفت .

الأمر الثانى — هو أن للانسان ظاهراً وباطناً ، وظاهر الإنسان جسده ، وباطنه قلبه ومعناه ، وكما للجسد أمراض ، فكذلك للقلوب أمراض . أما أمراض الجسد فظاهرة ميسور علاجها ، لأنها تتعلق بالظاهر الحسى فى الإنسان . وأما أمراض القلوب فمن الصعب العسير علاجها ، لأنها تتعلق بالباطن فى الإنسان ، وما خفى استعصى علاجه .

الأمر الثالث — هو أنه كما كانت النفس عشاقة لما زين لها . والعشق : هو المبالغة فى الحب . وما خلا قلب من حب لواحدة مما ذكر الله فى قوله جل شأنه : (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها

وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين) . اللهم إلا من عصم الله . والحب كما يقول صلى الله عليه وسلم « يعمى ويصم » والأعمى عن كل شىء إلا ما هو فيه ، والأصم الذى لا يسمع من يناديه ، كيف يسهل على أطباء القلوب علاجه . قال تعالى (أفأنت تسمع الصم . أو تهدى العمى ومن كان فى ضلال مبين) . من أجل ذلك كله كان الداء معضلا ، اللهم إلا أن تكون هناك عناية من الله بعبده ، وفى هذه الحالة يوفقه إلى واحدة من أمرين ليتمكن بها من إخراج الشهوة من القلب ، وهما كما يقول ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه إما خوف مزعج . وإما شوق مقلق .

أما الخوف : فهو انخلاع طمأنينة الأمن بمطالعة الخبر . وأعنى بالخبر ما أخبرنا به الحق سبحانه وتعالى من وعيد توعد به من خالف أمره وأتبع هواه ، فى يوم تشخص فيه الأبصار . كما قال تعالى (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) ذلك اليوم الذى أزعج الأبرار من هوله رغم برهم وطاعتهم لله ، كما قال تعالى (ان الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً . يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً) . وكما قال تعالى (الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) رغم طاعتهم وقيامهم بما أوجب عليهم ربهم ، فما بال من اتبع هواه وخالف أمر ربه ! ! أليس ذلك أولى بالخوف من الله فى يوم يقول الله فيه — محذراً الناس من هوله — (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعه شىء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) . لاشك أن مطالعة ما ورد فى ذلك اليوم من الوعيد بعين التأمل يزعج القلوب الغافلة بشهواتها عن الله ، فتجعلها غير مطمئنة إلى شىء دونه .

أما ماورد فى ذلك اليوم من الوعيد فكثير فى كتاب الله تعالى . أنظر إلى قوله جل شأنه (يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله

الغرور) . وإلى قول الله تعالى (فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار . ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب . هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب) وهكذا فالطالع لهذه الآيات الكثيرة الواردة فى كتاب الله المتضمنة للوعيد وغيرها من الآيات الأخرى المتعلقة بوصف ذلك اليوم وهوله لا يخلو من أمرين : إما أن يؤمن بما تضمنته إيماناً قوياً راسخاً ، بحيث يتولد من مطالعتها فى نفسه من الجلال والخوف ما يمنعه من مخالفته لأمر ربه ، واتباع شهواته ، فيكون فى هذه الحالة مؤمناً حقاً . وأما أن يمر على هذه الآيات وغيرها فلا يجد فى نفسه من الجلال ما يمنعه ، فهو عبد إما ضعيف الإيمان ، وإما فى أيمانه شك والعياذ بالله . وأقول ذلك لأن الله تبارك وتعالى يقول (وخافون إن كنتم مؤمنين) و (إن) فى الآية شرطية والمعلق على شرط ينعدم بإنعدام ذلك الشرط . فمن لا خوف له من جلال ربه لا ايمان له به . ولذا يقول إبراهيم بن سفيان رضى الله عنه إذا سكن القلب خوفا أحرق فيه مواضع الشهوات ، وطرد الدنيا عنه . ويقول ذو النون المصرى : الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف ، فإذا زال عنهم الخوف ضلوا عن الطريق ويقول أبو عثمان رضى الله عنه : صدق الخوف هو الورع عن الآثام ظاهراً وباطناً . فالخوف إذاً هو ما حجزك عن محارم الله ، وإلا فقد يخاف العبد خوفاً غير صادق ، لا يحمله على ترك شهواته .

أما السبب الثانى : وهو الشوق المقلق — فهذا أعلى من حيث الدرجة من مقام الخوف ، ذلك : لأن مقام الخوف ينتهى بدخول الجنة ، قال تعالى (أدخلوا الجنة لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون) أما مقام الشوق : فهو دائم ما دام فى القلب بقية من حب لله ، ولذا يلازم العبد فى جنة ربه ، لأنه ثمرة من ثمار المحبة . وحقيقته : أنه لهيب يتأجج فى القلب تشعله صدق المحبة فيه ، وهو أنه ضرورى للسالك يحمله على المسير والسفر إلى الله . قال تعالى (من كان يرجو لقاء ربه فان أجل الله لآت) وقال على لسان من اصطنعه لنفسه (وعجلت إليك رب لترضى) وأعلا درجاته

ألا يكون لصاحبه اصطبار ولا قرار دون لقاء من أحب . وهو لا يكون عادة إلا لمعلوم غائب لأن المجهول من كل وجه لا يحب ولا يشتاق إليه ، لأنه غير معروف ولا مقرر فى النفس ولا مشاهد فى الحس ، والحق تبارك وتعالى معلوم بآثاره لا تتحقق رؤيته على الوجه الحقيق إلا يوم لقائه قال تعالى (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) . فالمحب الصادق ليس له دون لقاء محبوبه قرار . ولا يتحقق الحب لله وأنت ساكن إلى غيره ، بل لا يتحقق الحب وفى القلب بقية لسواه ، ومن ثم كان الشوق — باعتباره لهيباً تشعله نار الحب — لا يترك لصاحبه اصطباراً ، ولا يجعل له دون لقاء الله قراراً ومن كان هذا حاله فكيف يكون له فى غير الله إرادة أو شهوة ؟ فالشوق الصادق المقلق محرق لشهوات القلب فى مراحل السفر ، إن حل فى قلب كان كنف الله الذى يكتنف به عبده ليحفظه من سواه ، اصطفاء لنفسه . وهذا ما ذهب اليه القوم رضى الله عنهم فى معالجة الهوى فيقول بن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه فى حكمه . لا يخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج وشوق مقلق . ويقول يحيى بن معاذ رضى الله عنه . علاقة الشوق فطام الجوارح عن الشهوات . ويقول أبو يزيد البسطامى رضى الله عنه : المحب لا يحب الدنيا ولا الآخرة ، إنما يحب من مولاه مولاه . ويقول الخواص رضى الله عنه : المحبة محو الإرادات . واحتراق الصفات والحاجات . وقال بعض العارفين الشوق نار الله أشعلها فى قلوب أوليائه ، حتى يحرق بها ما فى قلوبهم من الخواطر والإرادات والعوارض والحاجات فجزاهم الله عنا خيراً وألهمنا الرشد إلى ما فيه الخير والصواب والله يقول الحق ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ؟